

الإسلام والحوار¹

أ. محمد الصغير بلعالم

بادئ ذي بدء أود أن أوضح و أبين أن هذه الدراسة المختصرة تعنى بموقف الإسلام من الحوار منذ فجر دعوته، أي في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم لكي يعلم الجميع ويتبينوا أن هذه المقولة ليست بنت العصر أو من ابتكار الآخرين، وإنما هي من أبجديات الإسلام منذ بدء الدعوة. ولقد كثر الكلام في السنوات الأخيرة وتشعب فيما اصطلح على تسميته "بحوار الحضارات" أو التقاء الأديان أعني "الإسلام والنصرانية واليهودية" وخاض في هذا الموضوع كل من شاء الخوض، من أجهزة الإعلام بمختلف أنواعها من مقروء ومسموع ومرئي، ومن رجال فكر ودين ومن منظمات عالمية مثل "اليونسكو" وحتى بعض رجال السياسة من رؤساء وملوك، الخ، وقد اشتد أوار هذا الكلام وعلا ضجيجيه بعد أحداث 11 سبتمبر 2001 الذي هزّ كيان الولايات المتحدة الأمريكية والعالم الغربي بأكمله فالدنيا قد قامت ولم تقعد بعد، وكان من شدة هول ما حدث أن فقد كثير من الناس في الغرب اتزانهم وضاع صوابهم، سياسيين منهم ومفكرين وإعلاميين وحتى بعض رجال الدين، وكانت فرصة لهم ليبحوا بضغائنهم ويكشفوا عن حقدهم على الإسلام والمسلمين فأخذوا ينشرون تهديداتهم يميناً وشمالاً، ولكن فئة أخرى منهم أكثر اتزاناً وتعقلاً وإدراكاً وفهماً للإسلام على حقيقته أنه

1. هذه المقالة كتبت قبل غزو العراق.

دين تسامح وأخوة ومحبة وسلام، وليس دين عنف وإرهاب وقهر، وهذه الفئة أضحت أكثر عزما وأكثر تصميمًا وجدية للعودة إلى طريق الحوار لأنه الطريق الوحيد الذي يزيل العقبات ويقضي على الشكوك والمخاوف وتوج مسعاهم هذا بإقامة صلاة في إيطاليا اشترك فيها رجال دين من الديانات السماوية الثلاثة.

والذي يهمننا نحن في هذا العرض الوجيز هو أن نبين أن الإسلام كان منذ فجره يسعى إلى الحوار ويدعو بالتي هي أحسن، بل أكثر من ذلك، فإن المسلمين الأولين كانوا يحسون بأن هناك رابطة متينة تربطهم بأهل الكتاب من اليهود والنصارى لأنهم أهل توحيد مثلهم، لهذا فإنه لما ضاقت بهم السبل في مكة أمرهم رسول الله بالهجرة إلى الحبشة لأن فيها ملكا مسيحيا يؤمن بالله مثلهم، كما أن المشركين والكفار تربطهم رابطة الشرك بمن هو مثلهم والشرك والكفر واحد مهما كان الزمان والمكان.

وقد سجل لنا القرآن صورة واضحة جلية لما ذكرناه في سورة الروم إذا كانت الحرب قائمة بين الفرس والروم، وكانوا مشركو مكة يرجون الانتصار للفرس لأنهم مشركون قريش إلى أصحاب رسول الله وقالوا "لقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب وإن قاتلتمونا لنظهرن عليكم" فجاءت النبوة الصادقة والقول الفصل الحق المبين في قوله تعالى : ﴿ألم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم﴾¹

1. سورة الروم، الآيات 1، 2، 3، 4، 5.

لماذا يفرح المؤمنون بانتصار الروم على الفرس وهم ليسوا منهم عقيدة أو جنسا أو أرومة، لأنهم أهل كتاب مثلهم يؤمنون بالله الواحد الأحد الذي انزل القرآن على عبده فانتصار الروم وهم أهل كتاب هو انتصار لهم بكلمة واحدة هو انتصار للإيمان على الكفر والإيمان والكفر ليست لهما حدود جنسية أو وطنية أو جغرافية.

ولقد انصرف رسول الله عندما استقر بالمدينة إلى تنظيم صفوف المسلمين من مهاجرين وأنصار وتوكيد وحدتهم وصهرهم في بوتقة الإسلام للقضاء على بقايا النعرات الجاهلية التي كانت تسود المجتمع العربي قبل الإسلام، ولسد الأبواب أمام المنافقين الذين كان همهم الوحيد هو الوقعة بين الأنصار والمهاجرين فكانت الأخوة الإسلامية التي دعا إليها رسول الله وجعلها في حكم الإخاء بالدم والنسب غير أن رسول الله أدرك أن ذلك لا يكفي، بل عليه أن يعمل على وحدة كاملة ليثرب بمسلميها ويهوديها، وتقول كتب السيرة أن اليهود قد أحسنوا استقبال رسول الله في البداية أملا في جلبه لصفوفهم ليتقوا به وبالمسلمين الذين أجلوهم في فلسطين أرض الميعاد في نظرهم.

وقد ردّ رسول الله التحية بأحسن منها فوثق صلته بهم وبرؤسائهم بالمودة والأخوة في الله لأنهم أهل كتاب بل إنه كان صلى الله عليه وسلم يصوم يوم صومهم وكانت قبلته بيت المقدس التي هي قبلتهم بعد هذا كان لا بد من تأكيد هذه الوضع بعهد وكتاب، أو صحيفة كما سماها الرسول نفسه تضمن حرية العقيدة وحرية العمل وتؤكد الصداقة والمودة والتحالف على السراء والضراء بين مختلف سكان يثرب ويقول د. حسين هيكل في كتابه "حياة محمد" أن هذه الوثيقة

هي في اعتقادنا من الوثائق السياسية الجديرة بالإعجاب على مر الزمان
ثم يقول "إن هذا الطور من حياة الرسول لم يسبق إليه نبي أو رسول
فقد كان عيسى وكان موسى وكان من سبقهما من الأنبياء يقفون
عند الدعوة الدينية ثم يتركون لمن بعدهم من الساسة وذوي السلطان
أن ينشروا الدعوة أما محمد فقد أراد أن يتم الإسلام على يديه وأن
يكون الرسول السياسي والمجاهد والفاتح كل ذلك في سبيل الله.

وإذا رجعنا إلى هذه الوثيقة نجدها تنص على ما يلي : وعن اليهود
ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين وإن اليهود بني عوف امة مع
المؤمنين ليهود وللمسلمين دينهم ثم عدد قبائل اليهود وإن على اليهود
نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم وإن بينهم النصر على من حارب أهل
هذه الصحيفة وإن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم، وأن
اليهود ينفقون مع المؤمنين ماداموا محاربين وإن يثرب حرام جوفها على
أهل هذه الصحيفة وأن الجار كالنفس غير مضار ولا إثم.

إن هذه الوثيقة التي كتبها رسول الله منذ 14 قرنا هي أكبر دليل
على سماحة الإسلام وتسامحه وسعة أفقه وتقديسه للحرية حرية الرأي
وحرية العقيدة وحرية الانتقال وحرية العمل وثورة على الجريمة وعلى
العدوان مهما كانت الأسباب وتعددت المنابع والضرب بشدة على
كل من يسعى في الأرض فسادا أو يخلخل المجتمع.

إن هذه الوثيقة هي دستور كامل، نرجو لدعاة الحوار أن يرجعوا
إليها لأنها تحدد بوضوح كيف يجب أن تكون علاقة الإنسان بالإنسان
وإن تعددت مشاربهم واختلفت ديانتهم وتنوعت أرومتهم من احترام
للحرية بجميع وجوهه واحترام للسلطة العليا والدفاع عن البلد الذي

يأويهم ويحتضنهم واحترام للجار وحق الجوار سواء أكان هذا الجار من ديننا وعرقنا أو كان غير ذلك، وتحريم الجريمة مهما كان نوعها أو مصدرها وأن عليهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة وأن ينهم النصيح والنصيحة دون العدوان والإثم.

لقد كانت غاية رسول الله من هذه الوثيقة أن يعيش الناس في وطنهم مطمئنين مهما كانت عقيدتهم لا يخشون على أنفسهم ولا على أموالهم ولا على إعراضهم وأن يتمتعوا بالحرية في عقائدهم وأموالهم، وأن يتعاونوا على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان.

لكن اليهود هم اليهود في كل زمان ومكان شيمتهم الغدر والخيانة لقد وقعوا الوثيقة مع رسول الله ظنا منهم أنهم قد يستطيعون ضمه إلى صفوفهم كما أشرنا سالفاً، لكنهم قد هالهم سرعة انتشار الإسلام في صفوف العرب فخافوا أن تمتد شرارته إلى بني جنسهم وهم لا يعترفون ببني من غير بني إسرائيل، فبدأوا يكيدون للرسول والإسلام وجهروا بالعداوة بعد أن أسلم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وهو من كبار أحبارهم وعلمائهم، ثم نزل الوحي بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام بيت إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام قال تعالى : ﴿قَدْ تَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّنَكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾¹، وكانت تلك الفتنة التي قصمت ظهر البعير كما يقول المثل العربي.

1. سورة البقرة، الآية 144.

وفي هذا الوقت حل بالمدينة وفد نصارى نجران لإجراء أول اتصال بالإسلام وبمحمد، واجتمعت الأديان السماوية الثلاثة بالمدينة، هذه الأديان التي ما تزال حتى اليوم تتجاذب مصير العالم، واشتد النقاش وحاول كل من اليهود والنصارى أن يقوى جانبه بضم إبراهيم إليه، وهي محاولة مضحكة كما يقول سيد قطب رحمه الله، لأن إبراهيم سابق لليهود وكتابهم التوراة بقرون، وسابق على النصرانية وكتابها الإنجيل بأكثر من عشرة قرون قال تعالى : ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَحْجُونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. هَـ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ. مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾¹. وقد حسم الحوار الذي جرى بين الأديان الثلاثة بقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾².

هذه الدعوة الخالصة المنصفة الواضحة البينة الداعية إلى توحيد الله وإخلاص الربوبية والعبودية له وحده دون أن تشرك به صنما أو عبدا مهما كان هذا العبد ملكا أو رسولا أو نبيا. إنها دعوة إلى القدر المشترك بين الديانات السماوية كلها وهو التوحيد وهو القدر الذي لا يتحقق الإيمان إلا به.

1. آل عمران، الآيات 65، 66، 67.

2. آل عمران، الآية 64.

وبعد، لقد رأينا كيف كان الإسلام ورسول الإسلام سبّاقاً بالدعوة إلى الحوار بين أهل الكتاب في الوقت الذي كان فيها الصراع على أشده بين اليهود والمسيحيين بل إن القرآن يأمرنا أن نجادل أهل الكتاب بالتي هي أحسن إلاّ الظالمون منهم قال تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلاّ بالتي هي أحسن إلاّ الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون﴾¹ لكن هذه الدعوة من الإسلام ورسوله لم تقابل على مر الأيام إلاّ بالكيد والكذب و الافتراء و الازدراء، وفي كثير من الأحيان بالحرب والسلاح والإبادة، ونحن في الجزائر أكثر الشعوب الإسلامية التي

1. سورة العنكبوت، الآية 46.

اكتوت بكل ذلك طوال العهد الاستعماري، لقد كان المبشرون هم الذين يمهّدون الطريق للعسكر فتقاسما الأدوار لقهر هذا الشعب ومحو الإسلام على أرضه، وحتى بعد استعادة الاستقلال فإن المبشرين لم يألوا جهداً في محاولتهم اليائسة لتنصير هذا الشعب وأذكر هنا حادثة وقعت في 1973 وكان التبشير في أوج نشاطه عندنا وكانت تصل إلى وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية قناطير من الكتب والمنشورات التبشيرية والموجهة خاصة إلى أبنائنا في المدارس، فاستدعى الأخ مولود قاسم رحمه الله الذي كان وزيراً آنذاك لهذا القطاع، أسقف الجزائر وقال له بالحرف الواحد : "نحن وإياكم في خندق واحد أمام زحف الإلحاد والشرك والخلال المجتمعات وتردي الأخلاق وخاصة في العالم المسيحي، وكان من المفروض أن نتعاون على مجابهة كل ذلك، ولكنكم أنتم مازلتهم تتمنون تنصير هذا الشعب، ولم يكن من الأسف إلا الاعتذار وإنه ليس على علم بذلك".

ولقد أشرت أنفاً إلى أجهزة الإعلام التي تخوض ما شاء لها الخوض فيما سمي بالحوار وأودّ أن أذكر مثلاً على ذلك قناة تلفزيونية فرنسية هي : "A.R.T.E" هذه القناة التي أدرجت في برامجها من السنة الماضية حصة من 5 حلقات تحت عنوان : "محمد رسول الإسلام" والمتتبع لهذه الحلقات إن لم يكن ذا علم وإطلاع على الإسلام وسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم يراها جيدة، قد تخدم الإسلام ولكن الحقيقة عكس ذلك تماماً فقد حشيت هذه الحلقات بالكاذب والافتراء والغمز واللمز في الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم وأورد مثالين فقط على ذلك :

1. قال قائلهم في سورة البقرة : والمسلمون يعرفون قيمة هذه السورة وأنها تتضمن أكثر من ألف حكم شرعي-أن هذه السورة كانت أطول سور القرآن لأنها تضم عددا كبيرا من الآيات لا يربط بينها أي رابط ولا ينتظم عقدها فلم يجد محمد أين يضعها فجمعها جميعا في سورة واحدة سماها سورة البقرة.

2. قالوا في غزوة بني قريظة، إن محمد ذبح أكثر من 900 رجل من اليهود في دقائق وسبى نساءهم وأولادهم، وأن محمدا لذكائه لم يصدر هو الحكم وإنما كلف أحد أصحابه بذلك فلما أصدر الحكم قال له محمد أصدرت حكما يرضي الله و المؤمنين، ولم يشيروا ولو إشارة بسيطة عن سبب ذلك، عن خيانة بني قريظة لعهودهم التي أمضوها مع رسول الله و عن اتصالهم بالأعداء أثناء حصار المدينة في غزوة الخندق ليتعاونوا للقضاء على محمد و المسلمين، ولم يشيروا أيضا إلى أن ذلك الصحابي الذي أصدر الحكم هم الذين اختاروه لأنه كان حليفا لهم قبل الاسلام قال تعالى : ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا﴾¹.

1. سورة الكهف، الآية 05.

